أفضل العلوم

إن العلم بحر خضم يمتلىء بالخيرات، وهو شجرة مثمرة يانعة بأطيب الثمار وهذه الثمرات تتنوع بتنوع شديد وكبير، وأفضل العلوم على الإطلاق هو العلم بكتاب الله ﷻ فهو حبل الله الممتد إلى عباده ليخرجوا به من الظلمات إلى النور.

فخير العلوم هو العلم بالقرآن الكريم.

قال رسول الله ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرؤه ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**من علّم آية من كتاب الله ﷻ كان له ثوابها ما تُليت**»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**إن الثقلين**

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧) وأحمد (١/ ٥٨) عن عثمان رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه أبو سهل القطّان وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٣٥) هذا إسناد جيد عزيز.

أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض»[١].

وأخرج ابن أبي داود في كتاب المصاحف عن أبي أمامة قال: «اقرأوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يُعذِب قلباً وعى القرآن»[٢].

وفي هذا الحديث دعوة للعمل بكتاب الله وتعلمه، وعدم الاعتماد على تعليق القرآن أو حفظه داخل علبة المصحف دون قراءة ودون فهم ودون حفظ. فهل لنا يا أختي المسلمة أن تتعلم كتاب الله ونحفظه حتى تكون قلوبنا واعية لكتاب الله فلا يعذبنا الله.

وعن عقبة بن عامر قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن في الصفة فقال: «**أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين بلا إثم ولا قطيعة رحم**». قلنا: بلى يا رسول الله كلنا نحب ذلك، قال: «**أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل**»[٣].

وعن زيد أنه سمع أبا سلَّام يقول: حدثني أبو أمامة

(١) مصنف أبي شيبة (٣٠٠٨١) (٦/ ١٣٣).
(٢) صحَّح الحافظ إسناده في فتح الباري (٩/ ٧٩).
(٣) مصنف أبي شيبة (٣٠٠٧٤) (٦/ ١٣٣).

الباهلي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه**»(١).

قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تعالى أهلين من الناس**» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**اقرأوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه أما إني لا أقول (آلم) حرف ولكن ألف عشر ولام عشر وميم عشر فتلك ثلاثون**»(٣).

حقاً إن القرآن تجارة رابحة مع الله ﷻ فهو الشكور الذي يُجازي على العمل القليل بالثواب الجزيل وصدق الله العظيم إذ يقول ﷻ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر: ٢٩].

وعن أبي هريرة: «اقرأوا القرآن وابتغوا ما فيه»(٤).

---

(١) صحيح مسلم (٨٠٤) باب فضل قراءة القرآن.
(٢) رواه أحمد (٣/ ١٢٧) شعب الإيمان (٢/ ٥٥١) وصححه الألباني في (صحيح الجامع).
(٣) رواه أبو جعفر النحاس في الوقف والابتداء وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٦٤).
(٤) الفردوس بمأثور الخطاب (١/ ٩٦) رقم (٣١٢).

عن عبد الله بن عمر قال: «من أراد العلم فليقرأ القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين»[١].

وعن أبي الأسود عن عبد الله أيضاً قال:

«العلل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور»[٢].

وصدق الله العظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

قال ابن سعدى: يقول تعالى مرغباً الخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي تعظكم وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله المقتضية لعقابه وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ وهو ـ هذا القرآن ـ شفاء لما في الصدر من أمراض الشهوات الصادرة عن الانقياد وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني فإن فيه من المواعظ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد مما يُوجب للعبد الرغبة والرهبة، وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير والرهبة عن الشر وتمت على تكرر ما يرد إليها

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٠١٨) (٦/ ١٢٥).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٠٢٠) (٦/ ١٢٥).

من معاني القرآن أوجب ذلك تقديم مُراد الله على مراد النفس، وصار ما يُرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه، وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرَّفها الله غاية التصريف وبيَّنها أحسن بيان مما يُزيل الشبه القادحة في الحق ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صحَّ القلب من مرضه ـ بهذه الطريقة ـ ورفل بأثواب العافية تبعته الجوارح كلها فإنها تصلح لصلاحه وتفسد بفساده ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالهدى هو العلم بالحق والعمل به و(الرحمة) هي ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به»[(١)].

وهكذا فالعلم بكتاب الله والعمل به هو الراحة والهدى والشفاء والرحمة، وهو الذكر الحسن في الأرض وفي السماء، عن ابن سابط قال: «إن البيوت التي يُقرأ فيها القرآن لتضيء السماء كما تضيء السماء لأهل الأرض. قال: وإن البيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن ليضيق على أهله وتحضره الشياطين وتنفر منه الملائكة»[(٢)].

وعن محمد بن القاسم المعروف بأبي العيناء قال: «أتيت عبد الله بن داود الخريبي فقال لي: ما جاء بك؟ قلت: الحديث، قال: فاذهب فتحفظ القرآن قال قلت: قد حفظت

(١) تفسير ابن سعدى: «تيسير الكريم المنان في تفسير آيات الرحمن» ص٣٢٣.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٠٢٥) (٦/ ١٢٧).

القرآن قال: فاقرأ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [يونس: ٧١] قال: فقرأت العشر حتى أنفذته قال: اذهب فتعلم الفرائض قال فقلت له: قد حفظت الصُلب والجَدّ والكِبَرَ قال: فأيها أقرب إليك ابن أخيك أو عمك قال قلت: ابن أخي قال: ولم؟ قال قلت لأن أخي ابن أبي وعمي من جدي قال: اذهب الآن فتعلم العربية قال قلت: قد علمتها قبل ذين، قال: فلم؟ قال عمر بن الخطاب حين طُعن يا لَلَّه يا لِلمسلمين لم فتح تلك اللام وكسر هذه؟ قال: فتح تلك للدعاء وكسر هذه للاستنصار، قال: لو حدثت أحداً لحدثتك»[١].

وهكذا رتب هذا العالم الخريبي لطالب العلم درجات العلم وبدأه بكتاب الله فهو أول أبواب العلم وهو خير وأفضل العلوم، ولذلك كان الصحابة والتابعين يداومون على القراءة والفهم والحفظ لكتاب الله قال ذو النورين عثمان بن عفان: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم»[٢].

وكان عبد الله بن الشخير يقرأ في المصحف حتى يغشى عليه[٣].

وكانت السيدة حفصة بنت سيرين تقوم الليل تتلو كتاب الله كما كانت عالمة بالقرآن والقراءات[٤].

---

(١) تاريخ دمشق (٢٨/ ٢٩)، سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٥٠).
(٢) ترطيب الأفواه لسيد حسين العفاني (٢/ ٩٢).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٦٤٩) (٧/ ٢٣٦).
(٤) انظر كتابي «نساء لها تاريخ» ص١٧٠.

وهكذا فلأن في القرآن حياة القلوب وشفاء الصدور قدَّره المسلمون والمسلمات حق قدره، فعملوا على قراءته وتعلمه وفهمه، ومن أروع ما جاء في تفضيل القرآن على سائر العلوم ما أورده ابن أبي شيبة في مصنفه:

عن الحسن قال: كان رجل يكثر غشيان باب عمر قال: فقال له عمر: اذهب فتعلم كتاب الله تعالى، قال: ففقده عمر ثم لقيه فكأنه عاتبه فقال:

«وجدت في كتاب الله ما أغناني عن باب عمر»[١].

حقاً والله، فإن كتاب الله هو الزاد الذي يستغنى به صاحبه وحامله عن كل زاد وهو الخير كل الخير.

قال أبو عمر: «طلب العلم درجات ومناقل ورتب لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدى سبيلهم عمداً ضل ومن تعداه مجتهداً زل، فأول العلم حفظ كتاب اللهﷻ وتفهمه وكل ما يعين على فهمه فواجب طلبه معه، ولا أقول إن حفظه كله فرض ولكن أقول إن ذلك واجب لازم على من أحب أن يكون عالماً»[٢].

وهكذا يكون كتاب الله في مقدمة العلوم التي ينبغي على صانعة العلماء تعلُّمها وتعليمها لأولادها وبناتها حتى يكون

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٦٣٩) (٧/ ٢٣٦).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٤٠٢).

حفظ كتاب الله وفهمه هو الطريق الصحيح لطلب العلم النافع ففي كتاب الله كل الخير والنور.

فهيا أختي المسلمة إلى القرآن الكريم قراءةً وفهماً وحفظاً، ولا تتكاسلي عن هذه الغاية واخلصي النية في طلبك للعلم وفي حفظك لكتاب الله حتى يوفقك الله لحفظ كتابه والعمل به فهو خير شيء تدخرينه لآخرتك إن قبله الله منك وهو مفتاح العلوم وهو خير العلوم.

وصدق الإمام الصنعاني حين قال في وصفه: [الطويل]

كتابٌ حوى كل العلوم وكلَّما
حواه من العلم الشريف صواب
فإن رُمت تاريخاً رأيت عجائباً
ترى آدماً مُذ كان وهو تراب
ولاقيت هابيلاً قتيل شقيقِهِ
يُواريه لما أن رَآهُ غُرابُ
وتنظر نوحاً وهو في الفلك إذ طغى
على الأرض مِنْ ماءِ السَّحاب عُيابُ
وإن شئت كُلّ الأنبياء وقومهم
وما قال كُلٌّ مِنْهُمُ وأجابُوا
وجناتُ عَدْن حُورها ونعيمها
ونار بها للمسرفين عذاب
فتلك لأرباب النقاء وهذه
لكل شقِيٍّ قد حواه عقاب

وإن تُـرد الـوعـظ الـذي إن عـقـلـتـه
فـإن دمـوع الـعـيـن عـنـه جـواب
تـجـده ومـا تـهـواه مـن كـل مـشـربٍ
فـلـلـروح مـنـه مـطـعـمٌ وشَـرابُ
وإن رُمـت إبـراز الأدلـة فـي الـذي
تُـريـد فـمـا تـدعـو إلـيـه مُـجـاب
تـدل عـلـى الـتـوحـيـد فـيـه قـواطِـع
بـهـا قُـطِـعَـت لـلـمـلـحـديـن رِقـابُ
وفـيـه الـدَّوا مِـنْ كُـلِّ داءٍ فَـثِـقْ بِـهِ
فـواللَّـهُ مـاعـتـه لـلـذّكـيّ حِـجـابُ
ولـكـن سـكـان الـبـيـطـة أصـبـحـوا
كـأنـهـم عـمَّـا حَـواهُ غِـضَـابُ
فـلا يـطـلـبـون الـحـقَّ مـنـه وإنـمـا
يـقـولـون مـن يـتـلـوه فـهـو مُـثـاب
فـإن جـاءهـم الـدلـيـل مُـوافِـقـاً
لـمـا كـان لـلآبـاء إلـيـه ذِهـابُ
رَضُـوهُ وإلا قـيـل هـذا مُـؤوَّلٌ
ويَـرْكـب فـي الـتَّـأْوِيـل فـيـه صِـعـابُ
تـراه أسـيـر كـل حَـبْـر يـقـوده
إلـى مَـذْهـبٍ قـد قَـرَّرَتْـه صِـحـابُ
أتـعـرض عـنـه عـن ريـاض أريـضَـةٍ
وتـعـتـاض جـهـلاً بـالـرِّيـاض هِـضَـابُ

يُريك صِراطاً مستقيماً وغيره
مفاوز جَهْل كُلِّها وشِعَابُ
يزيد على مَرِّ الجَديدَيْن جدَّه
فألفاظه مهما تلوت عذابُ
وآياته في كل حينٍ طَريَّة
وتبلغ أقصى العمر وهي كِعَابُ
ففيه هُدىً للعالمين ورحمة
وفيه عُلُوم جَمَّةٌ وثوابُ
فكل كلامٍ دونه القشر لا سوى
وذا كُلُّه عند اللبيب لُبابُ
دَعُوا كل قولٍ غيره وسِوى الذي
أتى عن رسول الله فهو صواب
وعُضُّوا عليه بالنواجذ واصبروا
عليه ولو لم يبق في الفم نابُ
تنالون ما ترجون من كُلِّ مَطْلب
إذا كان فيكم هِمَّةٌ وطَلابُ
أَطِيلُوا على السبع الطوال وُقُوفكم
تَدِرُّ عليكم بالعلوم سَحابُ
فكم من ألوفٍ في المِئينَ فكن بها
ألوفاً تجد ما ضاق عنه حِساب
وفي طي أَثْناء المثاني نفائسٌ
يطيب لها نشرٌ ويُفتح بابُ

وكم من فضولٍ في المُفصَّل قد حوت
أصُولاً إليها للذكيِّ مآبُ
وما كان في عصر الرسول وصحبه
سِواه الهدى للعالمين كتابُ

حقاً فإن القرآن الكريم خير العلوم وأفضل العلوم، وهو الخير فهلمّي أختي المسلمة إلى كتاب الله ففيه الخير والرحمة والشفاء.

فكن تالياً آي الكِتابِ مُداوياً
بها كُلَّ داءٍ فهي أرجى دَوَائهِ
فمنه ينابيع العلوم تفجَّرَتْ
وما فاض من علمٍ فمن عَذْبِ مائِهِ
هدىً وشفاءٌ للقلوبِ ورحمَةٌ
من الله يُشْفي ذو العمى بشفائِهِ

فهيا إلى كتاب الله علماً وتعليماً لتكوني من صانعات العلماء وتكوني من صانعات حملة القرآن وهم خير العلماء ربَّتهم وتربيهم خير نساء «نساء صنعن علماء».